عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ - وقد قال الرسول ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»[١].

وكيف تحزبوا ضد المؤمنين بكل طاقاتهم وإمكانياتهم، وكيف قُتلوا وأسروا وحُسروا وانحسروا دون حرب طاحنة؟[٢] فهذه الآيات يقص القصة

(١) الدر المنثور ٥: ١٩٢ - أخرج أحمد والبخاري وابن مردويه عن سليمان بن صرد قال قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: . .

(٢) علي بن إبراهيم القمي يذكر قصة الأحزاب بتفصيل يقول فيه. . فإنها نزلت في قصة الأحزاب من قريش والعرب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ وذلك أن قريشاً تجمعت في سنة خمس من الهجرة وساروا في العرب وجلبوا واستفزهم لحرب رسول الله ﷺ فوافوا في عشرة آلاف ومعهم كنانة وسليم وفزارة وكان رسول الله ﷺ حين أجلى بني النضير وهم بطن من اليهود من المدينة وكان رئيسهم حيي بن أخطب وهم يهود من بني هارون فنجا أحدهم من المدينة صاروا إلى خيبر وخرج حيي بن أخطب إلى قريش بمكة وقال لهم إن محمداً ﷺ قد وتركم ووترنا وأجلانا من المدينة من ديارنا وأموالنا وأجلى بين عمنا بني قينقاع فسيروا في الأرض واجمعوا حلفاءكم وغيرهم وسيروا إليهم فإنه قد بقي من قومي بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة وبينهم وبين محمد عهد وميثاق وأنا أحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمد ويكونوا معنا عليهم فتأتونه أنتم من فوق وهم من أسفل وكان موضع بني قريظة من المدينة على قدر ميلين وهو الموضع الذي يسمى بئر بني المطلب فلم يزل يسير معهم حيي بن أخطب في قبائل العرب حتى اجتمعوا قدر عشرة آلاف من قريش وكنانة والأقرع بن حابس في قومه والعباس بن مرداس في بني سليم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستشار أصحابه وكانوا سبعمائة رجل فقال سلمان: يا رسول الله ﷺ إن القليل لا يقاوم الكثير في المطاولة ولا يمكنهم أن يأتونا من كل وجه فإنا كنا معاشر العجم في بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا نحفر الخنادق فيكون الحرب من مواضع معروفة فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: أشار بصواب فأمر رسول الله ﷺ بحفرة من ناحية أحد إلى راتج وجعل على كل عشرين خطوة وثلاثين خطوة قوماً من المهاجرين والأنصار يحفرونه فأمر فحملت المساحي والمعاول وبدأ رسول الله ﷺ وأخذ معولاً فحفر في موضع المهاجرين بنفسه وأمير المؤمنين عليه السلام ينقل التراب من الحفرة حتى عرق رسول الله ﷺ وعيي وقال: لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم للأنصار والمهاجرة فلما نظر الناس إلى رسول الله ﷺ يحفر اجتهدوا في الحفر ونقل التراب فلما كان في اليوم الثاني بكروا إلى الحفر وقعد رسول الله ﷺ في مسجد الفتح فبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم يعمل المعاول فيه فبعثوا جابر بن عبد الله الأنصاري إلى رسول الله ﷺ يعلمه بذلك قال جابر فجئت إلى المسجد ورسول الله =

كما يتضمن رؤوس أقلامها وكما يضمن بقاءها على مدّ الزمن نموذجاً بارعاً من نماذج النصر، كاشفة لهم من جوانبها ما لم يدركوها، ويلقي أضواءً منها على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبَّئات الضمائر ولكي يتدربوا ويتأدبوا بمعدات الحرب الدفاعية الوقائية كيفما كانت عدَّة المهاجمين وعُدَّتهم وتلك نعمةٌ منقطعة النظير في هكذا الخطر الخطير ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ من فوقكم ومن أسفل منكم.. ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وابتليتم وزلزلتم زلزالاً شديداً ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ راحت بها راحتهم وانزاحت عِدَّتُهم وعُدّتهم ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَآ﴾ وعلّهم رأوها وهابوها فانهزموا دون حرب طاحنة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾:

قد تكون هذه الريح ريح الصبا كما يروى عن الرسول ﷺ [1] والجنود علّهم من الملائكة المردفين كما في آية أخرى.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾:

= مستلقٍ على قفاه ورداءه تحت رأسه وقد شد على بطنه حجراً فقلت: يا رسول الله ﷺ قد عرض لنا جبل لم تعمل المعاول فيه فقام مسرعاً حتى جاءه ثم دعا بماء في إناء فغسل وجهه وذراعيه ومسح على رأسه ورجليه ثم شرب ومجّ في ذلك الماء ثم صبه على ذلك الحجر ثم أخذ معولاً فضرب ضربة فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور الشام ثم ضرب أخرى فبرقت برقة نظرنا فيها إلى قصور المدائن ثم ضرب أخرى فبرقت برقة أخرى فنظرنا فيها إلى قصور اليمن فقال رسول الله ﷺ: أما إنه سيفتح الله عليكم هذه المواطن التي برقت فيها البرق ثم انهال علينا الجبل كما ينهال علينا الرمل فقال جابر: فعلمت أن رسول الله ﷺ مقوٍ أي جائع لما رأيت على بطنه الحجر فقلت: يا رسول الله ﷺ هل لك في الغداء؟ قال: ما عندك يا جابر؟ فقلت: عناق (الأنثى من أولاد المعز) وصاع من شعير فقال ﷺ: تقدم وأصلح ما عندك قال جابر فجئت إلى أهلي فأمرتها فطحنت الشعير وذبحت العنز وسلختها وأمرتها أن تجز وتطبخ وتشوى فلما فرغت من ذلك جئت إلى رسول الله ﷺ.

(١) الدر المنثور ٥: ١٨٥ - أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ هما جانبان من جوانب المدينة، والمهاجمون على أحزابهم حزبان: اليهود والمشركون، إذاً فأحدهما ﴿جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ والآخر ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وطبعاً المشركون من جانب مكة فهو جانبها الغربي: ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ فأحزاب اليهود من الجانب المقابل الشرقي: من فوقكم، وما ألطفه تعبيراً للشرقي بالفوق حيث اليهود كانوا قريبين منهم كأنهم فوق رؤوسهم وأن المشرق فوق إذ تتفوق فيه الشمس فهو يتفوق المغرب، وما ألطفه للغربي ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ «لأسفلكم» فإنهم كانوا بعيدين عنهم وفي الجانب الغربي وهو سفل الشمس.

ثم الجاؤون من فوق كانوا أخطر لقربهم مكاناً وبعدهم عن التهجم لمكان العهود التي وثّقت بينهم وبين النبي ﷺ فمفاجأتهم أخطر، وخطرهم أكثر، ولكنما المشركون كانوا أسفل لبُعد المكان والتهيؤ لهم أكثر مما لليهود بفارق عدم الميثاق.

هنا تتمثل صورة الهول الفظيع الفجيع التي سلبت من جموع المؤمنين أبصارهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وقلبت قلوبهم: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ فخلّفت ظنوناً لا تليق بساحة الإيمان: «وتظنون بالله الظنونا.

إنهم إذ يرون الحق كله معهم والباطل كله مع الأحزاب، ثم يفاجؤون بهذه الفجأة النكراء الدهماء الدهياء، فكيف تظل أبصارهم كعادتها لا تزيغ، وقلوبهم في مكاناتها لا تبلغ الحناجر، ولكن لماذا ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ دون أن ترونها امتحاناً وبلاءً دون امتهانة لعناء.

زَيغ الأبصار هو انحرافها عن حق الإبصار إذ أبصروا الأحزاب هاجمة، وبلوغ القلوب الحناجر يصور مدى الخوف حيث كادت تزهق به النفوس.. وهذه حالة المجموعة من ضعفاء الإيمان والمنافقين، وأما

المؤمنون الحقيقيون ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[1].

قصة الأحزاب هنا ترسم مربعاً من وسطها للمهاجمين، وللمؤمنين، وضعفاء الإيمان، وللمنافقين، فتوضّح لكلٍّ دوره.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾:

في هذه البلية الزلزال نجح أقوياء الإيمان: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ وزلزل الإخفاء وبسطاء الإيمان: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾... وبرز كامن النفاق من المنافقين المدعين الإيمان ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾... وقد تشمل الكل ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾... أم وقبلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟...﴾ فإنهم آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، والبسطاء: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[2] ولكنما الأقوياء آمنوا بقلوبهم كما آمنوا بألسنتهم ففيما بلغت قلوبهم الحناجر قالوا: يا رسول الله ﷺ! هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا فضرب الله وجوه أعدائه بالريح فهزمهم الله بالريح»[3].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٣) الدر المنثور ٥: ١٨٥ - أخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال قلنا يوم الخندق يا رسول الله ﷺ!... وفيه أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طرق عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة اليهود أسفل نخافهم على ذرارينا وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى أحد منّا إصبعه فجعل المنافقون يستأذنون النبي... وفيه أخرج الفريابي وابن عساكر عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال قال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ لحملته ولفعلت فقال حذيفة: لقد رأيتني ليلة الأحزاب ونحن مع رسول الله ﷺ فكان رسول الله ﷺ يصلي من الليل في ليلة باردة ما قبله ولا بعده برد كان أشد منه فحانت =

وليس ذلك الابتلاء الزلزال للمؤمنين ليختص بما مضى وهم حضور لدى الرسول ﷺ، فإن له أشباهاً ونظائر قد تكون أبلى مما مضى وكما يبتلون زمن الغيبة ولا سيما في أواخرها، وليس الرسول ﷺ فيهم ولا أحد من عترته إلّا الغائب وكما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أما إنه سيأتي على الناس زمان يكون الحق فيه مستوراً والباطل ظاهراً مشهوراً وذلك إذا كان أولى الناس به أعداءهم له واقترب الوعد الحق وعظم الإلحاد وظهر الفساد هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ونحلهم الأخيار أسماء الأشرار فيكون جهد المؤمن أن يحفظ مهجته من أقرب الناس إليه ثم يفتح الله الفرج لأوليائه ويظهر صاحب الأمر على أعدائه»(١).

إن دور المنافقين في هذا الوسط كان أنحس دور وأتعسه، تندد بهم عديد من آيات القصة شديد في أبوابهم الجهنمية السبع:

١ - ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾:

كلمة تكلم القلوب وتجرح الأكباد، يقولونها في هذا البلاء الزلزال

= مني التفاتة فقال ﷺ: ألا رجل يذهب إلى هؤلاء فيأتينا بخبرهم جعله الله معي يوم القيامة؟ قال: فما قام منّا إنسان قال: فسكتوا ثم عاد فسكتوا ثم قال: يا أبا بكر ثم قال استغفر الله رسوله ثم قال: إن شئت ذهبت فقال: يا عمر فقال استغفر الله ورسوله ثم قال ﷺ: يا حذيفة؟ فقلت: لبيك فقمت حتى أتيت وإن جنبيّ ليضربان من البرد فمسح رأسي ووجهي ثم قال: ائت هؤلاء القوم حتى تأتينا بخبرهم ولا تحدث حدثاً حتى ترجع ثم قال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه قال فلأن يكون أرسلها كان أحب إليّ من الدنيا، وما فيها قال فانطلقت فأخذت أمشي في حمام قال فوجدتهم قد أرسل عليهم ريحاً فقطعت أطنابهم وأبنيتهم وذهبت بخيولهم ولم تدع شيئاً إلا أهلكته قال: وأبو سفيان قاعد يصطلي عند نار له، قال فنظرت فأخذت سهماً فوضعته في كبد قوسي قال: وكان حذيفة رامياً فذكرت رسول الله ﷺ لا تحدثن حدثاً حتى ترجع قال: فرددت سهمي في كنانتي...

(١) نور الثقلين ٤: ٢٤٢ ح ٣٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين حديث طويل يقول فيه:...

لتأخذ مجالاتها من قلوب الناشئة ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ومن قلوب ضعفاء الإيمان، لا سيما وهم كانوا ممن يتقشفون في مظاهر الإيمان ويتسابقون، فهم قد يعتبرون وعود النصر والانتصار من الله ورسوله غروراً، يقوله المنافقون ويتبعهم الذين في قلوبهم مرض الشك وشائبة النفاق، فيصبحان حزباً واحداً في هذه الدعاية النكراء.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ حينما تفرد تعني في الأكثر - المنافقين وحينما تقرن بالمنافقين تعني من يحن إليهم ويهواهم ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾[١] ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾[٢] وقد يعني المرض دونهما كما الشهوة: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[٣] وكل انحراف في القلب مرض عقيدياً أو علمياً أو أخلاقياً أما ذا؟.

فقد وجد هؤلاء الأوغاد الأنكاد في هذا البلاء المزلزل والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن أمراض قلوبهم وهم آمنون ألّا لومة عليهم، والمجالة آهلة، والريبة آخذة مجالها من قلوب بلغت الحناجر، فالواقع المزلزل بظاهره يصدقهم في غرورهم كأنهم منطقيون في قولتهم في هذا المسرح الهائل، حيث أزيح عن قلوب البسطاء والأخفاء ذلك الستار الرقيق من تجمُّل الإيمان، وهذه هي سيرة النفاق، تفتش عن المجالات الأسرع تأثراً والأوقع تحسراً، زرعاً للشكوك فيها، وحصداً للناشئة لتنضم إلى حزبهم وهنالك الطامة الكبرى.

لكنما الله يكشف دوماً عن نواياهم وجناياهم، تعريفاً بهم ومختلف الشبابيك من نفاقهم، ومؤتلف الشبكات من مكائدهم:

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾:

ذلك بعدما جنّد النبي ﷺ المؤمنين أمام الخندق حول المدينة، في صفوف متراصة متربصة وفيهم منافقون، هنا يخاطبون أهل يثرب المدينة خطاب الترهيب من العدو الرهيب ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ وهو مُفعَلٌ من الإقامة، مصدراً واسم زمان ومكان، لا إقامة لكم هاهنا دفاعاً أو هجوماً إلا انهزاماً، ولا زمانها ولا مكانها، إذ لا قِبَل لكم في أصل المقاومة ولا زمانها ولا مكانها، والانهزام كائن في مثلثه لا محالة ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم وقد تكون بيوتكم عورة، أو تهاجم من قبل العدو وأنتم هنا في معركة خاسرة؟!

يحرضون هكذا أهل المدينة على ترك الصفوف بدعوة خبيثة تأتي النفوس من ثغراتها الضعيفة، من محدق الخطر وجامح الهول والغيرة على البيوت العودة كما:

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾:

إنهم في ثالوث الخيانة بزعزعة الجيش، دعاية لرجوعهم واستئذاناً لأنفسهم، أو رجوعاً دون إذن، ومعهم متثاقلون لم يحضروا الصفوف، وأخطر زواياه ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾... ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾... ذليلة الحيطان وهي في أقصى المدينة[1]. لكي يوجهوا زحفهم بوجهة الاستئذان لحفظ العورة، ويحرِّضوا غيرهم بظاهر الغيرة على العورة فاستئصالاً لصفوف الجيش.

(١) الدر المنثور ٥: ١٨٨ - أخرج ابن أبي حاتم عن السري في الآية.. فارجعوا قال: إلى المدينة عن قتال ابن سفيان ويستأذن فريق منهم النبي ﷺ قال: جاءه رجلان من الأنصار من بني حارثة أحدهما يدعى أبا عرابة بن أوس والآخر يدعى أوس بن قيظي فقالا: يا رسول الله ﷺ: إن بيوتنا عورة يعنون أنها ذليلة الحيطان ونحن في أقصى المدينة ونحن نخاف السرق فائذن لنا فقال الله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

ويثرب: المدينة - الطيبة: مدينة تأكل القرى تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد[١] فلأن الرسول ﷺ سكنها وأسس دولة الإسلام فيها، ثم توفي ودفن فيها، فهي إذاً مدينة إذ مدنها الرسول، وطيبة إذ طيّبها.

٤ - ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ المدينة ﴿عَلَيْهِم﴾: المنافقين والذين في قلوبهم مرض ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: وكل جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾: أن يفتنوا مع الداخلين ضد المؤمنين ﴿لَآتَوْهَا﴾: الفتنة، تاركين بيوتهم العورة لينضموا إلى الداخلين ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ بقاءً في بيوتهم العورة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ما تيسر لهم في لبثهم! أم «لو دخلت» بيوتهم العورة من أقطار المدينة «ثم سُئلوا فتنة الحرب مع المؤمنين لأتوا الفتنة خارج بيوتهم وما تلبثوا ببيوتهم إلّا يسيراً»!

أم «لو دخلت» أيّ مدخل منهما، ثم سئلوا فتنة الردة إلى الكفر لآتوها وما تلبثوا ببيوتهم العورة إلا قليلاً ولماذا «لو» إحالة للدخول عليهم؟ حيث الكافرون لا يدخلون عليهم محاربين! بل لسؤال الفتنة الردة والمشاركة في الهجمة على المؤمنين! فهنالك ينسون البيوت العورة إذ يجدون آمالهم من أضرابهم، ولا يخافون على بيوتهم من المؤمنين أمّن ذا؟!

ذلك شأنهم الشائن والأعداء بعد خارج المدينة، يعتذرون في الخطر المتوقع للفرار، أن بيوتنا عورة، ولكنهم في واقع الخطر ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم

(١) المصدر وأخرج مالك وأحمد وعبد الرزاق والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي..
وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب قال قال رسول الله ﷺ: من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله هي طابة هي طابة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: لا تدعونها يثرب فإنها طيبة يعني المدينة ومن قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات هي طيبة هي طيبة هي طيبة.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ يعكسون الأمر إذ يأتون الفتنة والردة من بيوتهم العورة إذ لا تهمهم، وإنما تهمهم الفتنة أن يأتوها حَبْواً سِراعاً دون تلبث إلّا يسيراً يأخذون عُدّتهم لما سُئلوا!

هكذا يكشفهم القرآن في تناقض الشخصية المنافقة، وأنهم يولون الأدبار رغم ما عاهدوا الله:

٥ - ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾:

أترى أنه عهد الإيمان لما آمنوا بألسنتهم؟ ولا يخص ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ﴾! أم عهده بهذا الخصوص؟ ولم يذكر في القرآن! ولكن ﴿مِن قَبْلُ﴾ ليس لزامه ذكره في القرآن، فقد ذكر في الأثر أنهم همّوا أن يفشلوا يوم أُحد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يومها، ثم عاهدوا الله ألّا يعودوا لمثلها أبداً، فهنا يندِّد بهم إن نقضوا عهدهم ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾!

ولماذا الفرار من الزحف ولا ينفعهم، فليس إلّا ضرراً عليهم وفي الآخرة عذاب أليم:

٢ - ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿لَّن﴾ تحيل نفع الفرار إن كان من الموت أو القتل في المعركة، أما معنوياً فظاهرٌ حيث الفرار عن الزحف خسار، وأما بقاءً في حياةٍ فالموت أو تفسير، ج ٢٤، ص: ٦٨ القتل قَدَر لا مفر منه ولا منجى عنه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾... [1] ولئن أُخرتم بفرار ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وكل مُتَع الدنيا قليل، فحتى إن كان كثيراً في فرار عن حكم

(١) سورة النساء، الآية: ٧٨.

الله ففي الآخرة عذاب النار وبئس المصير، فمما الفرار إذاً ولا يخلف إلّا الخسار، ولن ينفعكم، وليس فرار العاقل إلا إلى نفع أو عن ضرر و﴿لَّن﴾!.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾:

هنالك يوحد إرادة السوء والرحمة في الله عدلاً وفضلاً فـ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

أأمنتم إن فررتم من الزحف أن يريد الله بكم سوءاً فلا عاصم منه إلّا هو، أو إن فررتم من الزحف أن يريد بكم رحمة فلا راد لفضله إلّا هو، إذاً فلماذا الفرار عن رحمة الله إلى نقمته، ومن خيره إلى ضره، فهؤلاء البعيدون البعيدون ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾ هنا وهناك ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم في بأسهم!

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾:

﴿قَدْ﴾ تحقق ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ إذ هو حقاً يعلم المعوقين منكم: ظن منافقين والذين في قلوبهم مرض، تثبيطاً عن الحرب وصرفاً في وهن القول ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾... ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾... وفي وهن الفعل ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾... تعويقاً لإخوانهم بقولة وفعلة مريبة ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: أضرابهم في ضعف الإيمان ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ تثبيطاً وفراراً، وهم

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٧.